

الحلقة الثانية
قصص السيرة

القصص النبوية

فتح مكة

عبد الحميد جودة السحار

١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا
تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ،
وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ .

(قرآن کریم)

عُقِدَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَّةِ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقُرَيْشٍ ،
 وَجَاءَ فِي ذَلِكَ الصُّلْحِ : أَنَّهُ مِنْ أَحَبِّ أَنْ يُحَالِفَ
 مُحَمَّدًا فَلْيُحَالِفْهُ ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُحَالِفَ قُرَيْشًا
 فَلْيُحَالِفْهَا ؛ فَحَالَفَتْ بَنُو بَكْرٍ قُرَيْشًا ، وَحَالَفَتْ
 خُزَاعَةُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .

وَبَيْنَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ ،
 جَاءَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيُّ ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ قُرَيْشًا
 وَبَنِي بَكْرٍ اعْتَدُوا عَلَى قَبِيلَتِهِ خُزَاعَةَ ، وَهِيَ الْقَبِيلَةُ
 الَّتِي حَالَفَتْ رَسُولَ اللَّهِ ، وَطَلَبَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ
 يَنْصُرَ حَلِيفَتَهُ ؛ وَلَمَّا كَانَ فِي اعْتِدَاءِ قُرَيْشٍ وَحَلِيفَتِهَا
 عَلَى خُزَاعَةَ حَلِيفَةِ الرَّسُولِ ، نَقَضَ لِلْمُعَاهَدَةِ ، فَإِنَّ

رسول الله ﷺ قال لعمر بن سالم :

- نصرت يا عمرو بن سالم .

وخاف أبو سفيان أن تشكو قبيلة خزاعة إلى حليفها النبي ، مما فعلته قريش ، فخرج إلى المدينة ليقابل رسول الله ، ويؤكد المعاهدة ، ودخل على ابنته أم حبيبة ، وكانت قد تزوجت من رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أن يجلس على فراش رسول الله ، طوته أم حبيبة عنه ، فغضب وقال :

- يا بنية ما أدري : أرغبت بي عن هذا الفراش ،

أم رغبت به عني ؟

ف قالت له ابنته :

- بلى ، هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل

مشارك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش

رسول الله ﷺ .

فقال وهو غضبان :

- والله لقد أصابك يابنيةٌ بعدى شرّ .

وخرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله فكلّمه ،
فلم يردّ عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلّمه
أن يكلّم له رسول الله ، فقال :

- ما أنا بفاعل .

وذهب إلى عمر بن الخطاب ، فرفض أن يكلّم له
رسول الله ، فدخل على علي بن أبي طالب ،
وعنده فاطمة بنت رسول الله ، فقال :

- يا عليّ ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإنى قد
جئتُ في حاجة ، فلا أرجعنّ كما جئتُ خائباً ،
فاشفعْ لى إلى رسول الله .

ورفض عليُّ أن يشفعَ له ، فعاد أبو سفيان سيِّدُ
قريشٍ خائبًا ؛ لم يجد من يكلمُ له رسولَ الله ، لأن
رسولَ الله كان قد وعدَ حلفاءه أن ينصرهم على
من نقضوا عهده .

٢

أمر رسولُ الله ﷺ المسلمين أن يتجهَّزوا
للخروج ، ولم يقلْ لهم أين يريد ، فلما تمَّ كلُّ
شئ ، أعلم الناس أنه ذاهبٌ إلى مكة ، وأمرهم أن
يسرعوا في سيرهم ، قبل أن تعلمَ قريشٌ بخروجه ،
ويستعدُّوا لمقابلته ؛ كان يُحبُّ أن يدخلَ مكة ، دون
أن يُريقَ دما ، وراح يدعو الله :

- اللهم خذِ العيونَ والأخبارَ عن قريش ، حتَّى

نَبَغَتْهَا (أَى نَفَاجَتْهَا) فِى بِلَادِهَا .
وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ لِسَفَرِهِ ، حَتَّى إِذَا اقْتَرَبَ مِنْ
مَكَّةَ عَسَكَرَ خَارِجَهَا ، وَكَانَ مَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ قَابَلَهُ فِى الطَّرِيقِ عُمَةُ الْعَبَّاسِ ، جَاءَ
إِلَيْهِ مِنْ مَكَّةَ يُعْلِنُ إِسْلَامَهُ ، فَعَادَ لِيَدْخُلَ مَعَهُ مَكَّةَ .
وَجَاءَ اللَّيْلُ ، فَأَشْعَلَ الْمُسْلِمُونَ النَّيْرَانَ ، وَرَاحُوا
يَذْكُرُونَ اللَّهَ وَيُسَبِّحُونَهُ ، كَانُوا فِى النَّهَارِ فَرَسَانَا ،
وَفِى اللَّيْلِ رُهْبَانَا .

٣

رَكِبَ الْعَبَّاسُ بَغْلَةَ الرَّسُولِ ، وَخَرَجَ مِنْ مَعَسِكَرِ
الْمُسْلِمِينَ ، يَبْحَثُ عَنْ حَطَّابٍ أَوْ صَاحِبِ لَبَنٍ أَوْ ذِى
حَاجَةٍ ، لِيُرْسِلَهُ إِلَى مَكَّةَ ، يَذْكُرُ لِأَهْلِهَا أَنَّ رَسُولَ

اللَّهُ ﷻ قد جاء في جيشٍ لا قُدرةَ لهم به ، ويخبرُهم أن يخرجوا إليه فيستأمنوه ، قبل أن يدخلها عليهم عُنوة .

وفي ذلك الوقت كان أبو سفيانَ وبعضُ الرجال قد خرجوا يتحسَّسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً . فلما رأوا النيرانَ ذهبوا ينظرون ، فقال أبو سفيان :

— ما رأيتُ كالليلةِ نيراناً قطُّ ولا عسكراً .

فقال رجلٌ معه :

— هذه والله خزاعة .

فقال أبو سفيان : « خُزاعةٌ أذلُّ وأقلُّ من أن

تكونَ هذه نيرانها وعسكرُها » .

وفي جوفِ الليل ، سمع العباسُ صوتَ أبي سفيانَ

فعرَفه ، فقال له :

- وَيَحَكْ يَا أَبَا سَفْيَانَ ! هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي
النَّاسِ . وَاصْبَحْ قُرَيْشٍ وَاللَّهِ .

قال أبو سفيان :

- فما الحيلة ؟ فِداك أبي وأُمِّي .

قال العباس :

- وَاللَّهِ لَئِنْ ظَفَرَ بِكَ لِيَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ ، فَارْكَبْ فِي
عَجْزِ هَذِهِ الْبَغْلَةِ ، حَتَّى آتِيَ بِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
فَأَسْتَأْمِنَهُ لَكَ .

فَرَكِبَ أَبُو سَفْيَانَ خَلْفَ الْعَبَّاسِ ، وَذَهَبَا إِلَى حَيْثُ
كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَكَانَا كُلُّمَا مَرَّأَ بِنَارٍ مِنْ نِيرَانِ
الْمُسْلِمِينَ ، سَمِعَا صَوْتًا يُنَادِي : مَنْ هَذَا ؟

وَحِينَمَا يَرَوْنَ بَغْلَةَ رَسُولِ اللَّهِ ، وَعَلَيْهَا الْعَبَّاسُ

يَقُولُونَ :

- عمُّ رسولِ الله ﷺ على بَغْلَتِهِ . ويُفْسِحُونَ الطريق ، حتى إذا مرَّ ابنُ عمرَ بن الخطاب ، ورأى عمرُ أبا سفيان ، قام إليه يصيح :

- أبو سفيانَ عدوُّ الله ، الحمدُ لله الذى أمكن منك ، بغيرِ عَقْدٍ ولا عهد !

وراح عُمرُ يجرى إلى حيثُ كان رسولُ الله ،
وراح العباسُ يستحثُّ البَغْلَةَ على الجرى . كان كلُّ
منهما يحاولُ أن يصلَ إلى رسولِ الله قبلَ الآخر ،
ووصلَ العباسُ إلى حيثُ كان الرسولُ ، ودخلَ
عليه ، ودخلَ عمرُ خلفه ، وقال عمر :

- يا رسولَ الله ، هذا أبو سفيانَ قد أمكنَ الله
منه بغيرِ عَقْدٍ ولا عهد ، فدَعْنِي فلاضربُ عُنْقَه .
قال العباس :

- يا رسول الله ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُهُ .

وَصَرَفَ النَّبِيُّ عُمَرَ وَالْعَبَّاسَ وَأَبَا سُفْيَانَ ، وَقَالَ
لِعَمِّهِ :

- اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ
فَأْتِنِي بِهِ .

٤

أَصْبَحَ الصَّبَاحَ ، فَجَاءَ الْعَبَّاسُ وَمَعَهُ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ أَبَا سُفْيَانَ ، قَالَ
لَهُ :

- وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ، أَلَمْ يَأْنِ (يَعْنِي : أَلَمْ يَحِنْ)
لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟
قَالَ أَبُو سُفْيَانَ :

— بأبي أنت وأُمِّي ، ما أحْلَمَكَ وأَكْرَمَكَ
وأَوْصَلَكَ ؟ واللّٰه لقد ظننتُ أن لو كان مع اللّٰه إلهٌ
غيره ، لقد أغْنَى عَنِّي شيئاً بعد .

قال رسولُ اللّٰه ﷺ :

— وَيْحَكَ يا أبا سُفْيَانَ ! ألم يَأْنِ لَكَ أن تَعْلَمَ أَنِّي
رسولُ اللّٰه ؟

قال : « بأبي أنت وأُمِّي ، ما أحْلَمَكَ وأَكْرَمَكَ
وأَوْصَلَكَ ! أمّا هذه واللّٰه فَإِنَّ في النَّفْسِ مِنْهَا حتّى
الآن شيئاً » .

فقال له العباس :

— وَيْحَكَ ! أَسْلِمَ واشْهَدُ أن لا إلهَ إلاّ اللّٰه ، وأنَّ
مُحَمَّدًا رسولُ اللّٰه ، قَبْلَ أن تُضْرَبَ عُنُقُكَ .
فقال أبو سُفْيَانَ :

- أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ .

فَقَالَ الْعَبَّاسُ :

- إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ يُحِبُّ هَذَا الْفَخْرَ ، فَاجْعَلْ

لَهُ شَيْئًا .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

- نَعَمْ ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ

أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .

٥

وَتَأْهَبَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ لِدُخُولِ مَكَّةَ ، وَرَكِبَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاقَتَهُ ، وَذَهَبَ أَبُو سُفْيَانَ يَصْرُخُ :

- مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ

بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ .

ودخلَ المسلمون مكة وقد اختبأ الناسُ في دُورِهِمْ ،
فَسَجَدَ رسولُ اللَّهِ ﷺ على ظهرِ ناقَتِهِ شكرًا لله ،
فقد دخلَ مكةَ منتَصِرًا بعدَ أن خَرَجَ منها خائفًا يترقب .
واطمأنَّ الناسُ إلى أنَّ رسولَ اللَّهِ لن يَيطِشَ بهم ،
فخرجُوا إليه ، وذهبَ رسولُ اللَّهِ وصحبُهُ إلى البيتِ
يطوفونَ به ، ووقفَ رسولُ اللَّهِ على بابِ الكعبةِ ،
وقال :

— لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ
وعُدَّهُ ، ونَصَرَ عَبْدَهُ ، وهَزَمَ الأحزابَ وحْدَهُ .
يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّ اللَّهَ قدْ أَذْهَبَ عَنْكُم نَحْوَةَ
الْجَاهِلِيَّةِ ، وتَعَظَّمَهَا بِالْأَبَاءِ . الناسُ مِنْ آدَمَ ، وآدَمُ
مِنْ تُرَابٍ . « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
وَأُنْثَى وجعلناكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .

يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟

قالوا :

- خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ .

وعفا رسولُ الله عنهم جميعًا ، عفا عَمَّنْ آذَوْهُ

واضطهدوه ، وأخرجوه من ديارِهِ ، فقال لهم :

- اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ .

وَدَخَلَ الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَجَعَلُوا

يَكْسِرُونَ أَصْنَامَهَا وَيَقُولُونَ :

- قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

زَهُوقًا .

ولما تَطَهَّرَتِ الْكَعْبَةُ عَنِ الْأَصْنَامِ ، اعْتَلَى بِلَالُ

الْكَعْبَةِ ، وَرَاحَ يُؤَذِّنُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي مَكَّةَ :

الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر !
أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله .
أشهد أن محمداً رسول الله .. أشهد أن محمداً
رسول الله .

حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة .
حيّ على الفلاح ، حيّ على الفلاح .
الله أكبر ! الله أكبر !
لا إله إلا الله .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح صوت المؤذن يجلجل
في الكعبة في كل يوم خمس مرات ، فقد هجر
العرب عبادة الأصنام ، وأصبحوا يعبدون الله
وحده .